الإنسان المتكيف

ياسين النصيّر

بالتأكيد من يقرأ كتاب مارشال بيرمان" حداثة التخلف" سيعرف أن هذا العنوان مأخوذ عن مقلوب جملته " الإنسان غير المتكيف" التي وردت في نصه، فمارشال يبني تصوراته عن الإنسان في عصر البرجوازية الذي سيكون مشروعا للتحديث فيصبح اللاتكيف عائقا أمام الحداثة لذا يعد هذا المفهوم عن الإنسان عائقا أمام التقدم ومن مكتشفات البرجوازية الحديثة التي وضعت مشروعات ثقافية وتعليمية لنقل هذا الإنسان غير المتكيف إلى مرحلة التكيف كي يستمر المجتمع ببناء حداثته. هذه مهمة من مهمات البرجوازية الحديثة التي نشأت بعد الحروب العالمية، بعد أن وجدت نفسها أمام مشكلة إيصال التقنية الحديثة عن طريق الإنسان العامل لجموع كبيرة من المستهلكين،فالبرجوازية وهي محملة بإرث ديني وتراث نهضوي وجدت نفسها أمام مشكلة نقل تحديثية كبيرة للمجتمع. فقد توفرت لها الأموال والثروات والأسواق والنزاعات وعليها أن توظف كل هذه لمصلحتها ما شكلت في عمومها مرحلة أوربا الناهضة وبؤرتها ألمانيا بعد هزيمة الفاشية في العالم، لكنها فوجئت بإنسان غير متكيف مع طروحاتها.

بالطبع نحن نتحدث عن المجتمع العراقي وعن الإنسان العراقي فيه ومدى تكيفه أو عدمه من تقبل المرحلة العراقية الحالية، فنحن في منعطف تاريخي مهم وهو أن حداثة مجتمعنا تقوم على الإنسان والطاقة والموارد المتأتية منهما، وهي مفردات متوفرة بينما تجهد شعوب كثيرة لتوفيرها. ترى ما العمل ونحن نفقدها يوميا، ليس بسبب الإرهاب فقط، بل بسبب أننا غير قادرين على استيعابها، فبعد سقوط النظام الفاشي في العراق برزت الفئات المتكيفة وغير المتكيفة بشكل لا يجعل ثمة فرصة لتأملها وكأنها خرجت من قمقم التاريخ المعاصر لتبرز بوجهها العراقي على سطح مجتمع لم نعرف بعد كيف نمسك بتلابيبه ومفاهيمه الجديدة .

هل يمكن أن نقول أن إنساننا غير متكيف مع طروحات الديمقراطية والتحديث؟ وهل بمقدورنا أن نؤسس مشروعات على هذا الإنسان وهو محمل بإرث الفساد الإداري والوظيفي طوال نصف قرن؟ وهل أن الفئات الثقافية والتكنوقراطية التي هاجرت وهي من الفئات المتكيفة مع الحداثة ولو بنسب معينة وتنوي العودة مسموح لها بأن تمارس دورا جديدا لجعل الإنسان العراقي قادراً على استيعاب مشروعات الحداثة دون أن يفقد هيمنته الدينية والقومية والعشائرية التي تتحكم مفرداتها السياسية والتنظيمية بالدولة العراقية الجديدة؟ أسئلة كثيرة لا نملك إجابة عنها، فمشروع الحداثة يمر عبر مشروع الدولة الحديثة وهذا المشروع مرتبط بإنسان يتكيف مع متطلبات المرحلة. هل وضعنا أسسا لنقل الإنسان العراقي ولو بالتمنيات من إنسان غير متكيف مع النظام السابق إلى إنسان متكيف مع المرحلة التعددية الجديدة؟. قد يبدو مثل هذا الطرح عبثيا، فالحكومة وأحزاب المحاصصة لا تفكر أبعد من أرنبة أنفها لاسيما والمرحلة غير مستمرة، لذا فمثل هذه المشروعات لا تنسجم والهوس الديني ولا مع الهوس القومي والطائفي.

الحديث عن إنساننا العراقي غير المتكيف قد يجلب وجع الرأس للبعض، فالإرث في هذا السياق واضح، فقد دربت المؤسسة الشيعية نفسها ومنذ بداية الحكم الوطني في العراق ١٩٢٠ على أن تكون خارج بنية المؤسسة الحكومية، وأسست لذلك ثقافة معينة، هي ثقافة الرفض للعمل مع مؤسسات الدولة، ففتحت لها مؤسسات تعليمية خاصة بها، اليوم تتحول تلك الثقافة الرافضة إلى ثقافة منتمية تمهد لنفسها الانخراط في مؤسسات الدولة العراقية، بل وتبنيها وفق منهجية معاصرة تأخذ بعين الاعتبار متطلبات العراق ومتطلبات التحديث ولكن هل بالفعل هي قادرة على تجاوز أرثها الثقافي لتندمج أولا بالمسيرة الثقافية الفدرالية والتعددية والدستورية ثم لتصبح قائدة في المجتمع دون أن يكون إرثها عائقا ابستمولوجيا أمام تحديثها؟

سيكون من المفيد القول أن الإنسان العراقي ونتيجة الاضطهاد المركب عليه من قبل الأنظمة الدكتاتورية ومن قبل الإيديولوجيات الدينية والقومية والسلفية لم يعد بمقدوره أن يغير سياقاته بسهولة فثمة بنية قارة في أعماقه هي معارضة التطور والتحديث وسيجد أسبابا عدة لذلك.

في ضوء هذه المشكلات ستنشأ عقبات كثيرة عندما يستقر المجتمع ويمهد لبناء نفسه ومؤسساته ولذلك علينا أن نفكر جديا ومنذ الآن بوضع خطط لثقافة المؤسسات الاجتماعية الجديدة ثقافة تأخذ بعين الاعتبار تربية وتنمية قدرات الشباب وتعليمهم على ثقافة التكيف والعمل الوظيفي خارج سياق أي إيديولوجية ينتمي لها.

هنا في الغرب ثمة دورات تأهيلية تسبق أي وظيفة أو عمل وتنصب هذه الدورات ليس على تدريب المنخرطين فيها كيفية العمل في وظائفهم فقط، بل وتعالج مشكلة التخلف في فهم آلية التكيف مع العمل الجديد والناتج الذي سيستفيد منه الناس. فصناعة الإنسان المتكيف ليست مهمة البرجوازية الصناعية والشركات وحدها بل أصبحت اليوم جزءاً من التعليم العام، في هولندا ثمة ظاهرة جمالية مهمة نلمسها في الشارع وهي أن كل هولندي يواجهك صباحا يبتسم في وجهك، وقد عرفت أن ثمة دروساً تعطى للطلبة تعلمهم كيف يكونون مرحين ومبتسمين في التعامل مع الآخرين، وهذه الابتسامة لا تعني إلا إدخال الرضا في قلبك من أن الشخص الذي تقابله لا يضمر لك العداء حتى لو كنت في محكمة.وثمة مثل يقول " الما يسلم عليك سلم عليه". هذا جزء من التكيف الاجتماعي البسيط، أما التكيف الصناعي والتقني فلذلك مهمات أعقد بكثير من التربية التي هي الحد الأدنى في سياقاتنا العراقية الجديدة. في مجال التنمية تتحول مفاهيم التكيف إلى علم وتقنية وشروط ومهمات هي أكثر بكثير من ابتسامة تواجه بها زبونك أو رئيس عملك، وهو ما نحاول أن نؤكده في مجتمع عراقي ديمقراطي يقوم على مبادئ الأخلاق كما يقول هيجل.

رؤيـــة أجـنـبـيـــة

الثقـافـــة العـراقيـــة : مـستقبل غير مـضمـون

ليونيل فيرون
ترجمة - احمد هاشم

شهدت الثقافة العراقية خلال الخمسين سنة الاخيرة انطلاقة لا سابق لها، و تقوم فرادتها من وجهة نظر المراقبين على قدرتها المذهلة على المزاوجة بين التراث و الحداثة و التدليل على جرأة فنية غير معهودة في العالم العربي.

كانت الاشكال الفنية التي ظهرت في العراق خلال هذه الفترة الممتدة من الحرب العالمية الثانية الى الدخول الاميركي –البريطاني ، ثمرة اللقاء بين موروثين. كان ثمة من جهة الموروث الذي ميز بغداد في ظل الخلافة العباسية (٧٥٠-١٢٥٨) التي ارتأت فيها النخبة المثقفة ان استعارة المكنون الافضل من الثقافات الاجنبية، وفي المجالات كافة، لا يتعارض في شيء مع اليقين الذي كان يحمله المسلمون "بانهم سادة قدرهم"كما يقول فون غرينباوم، وكان متاحا تمثل هذه المؤثرات و تعريبها وحتى أسلمتها من دون ان يضع ذلك اسس الحضارة الاسلامية موضع تشكيك. ومن جهة أخرى شهدت الثقافة العراقية في السنوات السابقة مباشرة على الحرب العالمية الثانية، وأيضا بعد نهايتها، التأثير الحاسم لنخبة عراقية كانت قد نالت تحصيلا فكريا او فنيا في اوربا وخصوصا في بريطانيا و فرنسا و ايطاليا. وكانت لعودة هذه النخبة الى العراق نتائج كبيرة على التطور الثقافي للعراق، اذ بفضل ذلك التلاقح مع الثقافة الغربية نال الفن الشعبي اعترافا وهو الذي كان محتقرا منذ زمن، وعلى الاخص الفنون التشكيلية التي اعتبرت غالبا متعارضة مع المقتضيات الدينية. وهذا الاعتراف بالفن سيولد فورة ثقافية لا سابق لها. وعلى الرغم من ان ذلك التأثير الغربي قد استشعر في سائر العالم العربي وفتح الباب لأشكال مهمة للحداثة الفنية، فان لا مكان آخر مثل العراق شهد تأثيرا كهذا وحفز على ثورة حقيقية في العمق.

والحق ان هذه الثورة وجدت في العراق تربة خصبة في المستوى الثقافي و الديني والذي تعود جذوره ايضا الى العهد العباسي، اذ تمثلت حنكة الخلفاء العباسيين في ادراكهم ان التعايش المتناغم للعديد من القوميات المختلفة و المتخاصمة في امبراطورية واحدة لا يمكن ان يرتكز الا على الاسلام الذي سيكون، و بمعزل عن العقيدة نفسها، ناقلا لصيغة حياة وتفكير قادرة على جمع تلك الشعوب كافة الى حين في وحدة ثقافية، بمعناها الاوسع طبعا. لا ريب في ان هذه السياسة اصطدمت في ذلك الحين بوجود سكان غير مسلمين و بالخصوص المسيحيين و اليهود الذين تعرضوا للاضطهاد في المرحلة الاولى للخلافة العباسية لاسيما في زمن الخليفة المتوكل (٨٤٧-٨٦). مع ذلك اعتادت هذه الشعوب في نهاية المطاف على التعايش المشترك و المسالم نسبيا على مر القرون حتى لو كانت تلك الشعوب مجردة انذاك من الشعور القطري. وفي بداية القرن العشرين لم يكن العرب الشيعة والسنة و الكورد والتركمان والفرس والارمن والاشوريون والكلدان والاغريق الارثوذكس واليهود والازديون والصابئة والبهائيون يشكلون بعد مجتمعا وطنيا – قطريا-عراقيا ولكنهم كانوا يشكلون الخميرة التي ستنضج مع الاحتلال البريطاني وستتعزز بعدئذ مع الملكية و النظام البعثي. ان ثورة العشرين المناهضة للاحتلال في ١٩٢٠ التي شنت ضد الاحتلال البريطاني هي التي ستصبح " الأسطورة المؤسسة للشعور الوطني- القطري - العراقي". وانطلاقا من تلك اللحظة و في حين كان الانتماء الى الأمة(بالعربية في الأصل - م) في اغلب البلدان العربية الأخرى، يتخطى بلا غضاضة الحدود القطرية التي رسمتها القوى الاستعمارية تبعا لمصالحها الجيو-سياسية الخاصة، فان وجود الشعور الوطني –القطري –الذي ترسخ على نحو متصاعد لدى العراقيين، جعل من هذا البلد استثناء بارزا من منظور التعايش العرقي و الديني. فقد شعر العراقيون بالإحساس بتشكيل كيان اصيل في العالم العربي المسلم يحق لهم ان يفخروا به.

ولم يقلص قط من هذا الشعور الوطني (القطري-م) والمعبر عنه بقوة في الميدان الثقافي، لا الخطاب العروبي القومي الذي كان صدام حسين يكرره منذ وصوله الى السلطة في عام ١٩٧٩ ولا التدابير المتخذة لتغليب تلك الهوية العربية.

موروث فني غني مخترق طرق المؤثرات العربية و الغربية

بالنسبة للانتلجنسيا العراقية يرتكز تجسيد هذه الأصالة الثقافية العراقية، تلك "العراقيانية" المعبر عنها في الفنون الجميلة، ارتكازا واسعا على حركة "الرواد"، وهي أسطورة مؤسسة حقيقية للحداثية العراقية و لدخول العراق في المجتمع الدولي الحديث. لقد القت هذه المدرسة بالعراق في سنوات الخمسينيات في مركز الحقل الثقافي العربي وعلى نحو متواصل.كانت المجموعات الثلاث المشكلة لهذه المدرسة هي "الأعراب" لفائق حسن، و جماعة بغداد للفن الحديث لجواد سليم و جماعة الانطباعيين التي قادها حافظ الدروبي. وقد قام هؤلاء الثلاثة بثورة حقيقية وطنية كانت تضع على نحو متقابل من يناصرون التقليد إزاء من كانوا انصار الحداثة. وقد فسحت هذه الثورة المجال لسجالات لانهائية -واحيانا عنيفة –عن طريق الصحافة وفي التجمعات العامة، واتاحت بصورة حاسمة ونهائية ولادة فن جديد متأثر بالتحولات الفنية في الغرب، وبعيد كليا عن التقليد التشكيلي العراقي الذي ظل مراوحا في مكانه الى حد كبير، وذا تاثيرات عثمانية بالدرجة الاولى .ان اغلب هؤلاء الفنانين قد درس في باريس، وخصوصا في مدرسة الفنون الجميلة مع اعظم اساتذة الفن في سنوات الاربعينيات و الخمسينيات، بينما درس آخرون في إيطاليا و بريطانيا، و قد نجحوا جميعا كل في مجاله و طابعه الخاص، في ان يدمجوا ، دمجا متناغما، تقنيات الروحية الحداثية الفنية الغربية مع تراث الرسم العربي أو الخط العربي. فضلا عن ذلك كان اغلبهم قد تزوج من فرنسيات، مستكملا بذلك الاتحاد الثقافي. وقد وافى الأجل اثنين من الفنانين قبل سنتين من اجتياح قوات التحالف بغداد، كان أولهم هو إسماعيل الشيخلي الذي توفي في العام ٢٠٠٢ و الذي أصبحت نساؤه العراقيات المرتديات العباءة السوداء رمزا للمرأة العراقية التقليدية، ثم توفي صالح القرغولي النحات الغريب الأطوار ذو التحصيل الفرنسي و الذي كان يرغب كثيرا في ان يقدم منحوتته المصممة من الحبال " امرأة عند حمامة السلام " الى الرئيس جاك شيراك .. وأيضا جميل حمودي الذي هو أيضا أحد تلامذة مدرسة الفنون الجميلة في باريس ومدرسة اللوفر أيضا و صديق بيكابيا و الذي دمج الخط العربي في عالم الأشكال الحديثة. اما الأخير الذي قضى بعد الحرب الأخيرة فهو شاكر حسن آل سعيد الذي كان يعيش منذ سنوات عديدة في عزلة تاملية و صوفية، مرعوبا ربما من السبيل الذي سلكه البشر. ولم يتبق اليوم احد من هؤلاء "الرواد" الذين كانوا مفخرة العراقيين وشكلوا سمعة بلدهم دوليا، و لكن اختفاءهم يحمل ضربة فظيعة للثقافة العراقية لانه يحرم الجيل الشاب من ذاكرة عصر كان العراقيون فيه يهيمنون على المشهد الثقافي العربي. كما ان أعمال هؤلاء الرواد دمرت او تشتتت في انحاء العالم و لا أحد بعد الآن بوسعه ان يعيد تشكيل التراث الاستثنائي الذي يذكرنا بان العراق لم يستطع إعطاء العالم ثرواته الأكبر كالكتابة و القانون والمعمار فحسب و إنما اثبت عبقريته أيضا في تكييف الحداثة، وهو تكييف ظل آخرون عديدون بمعزل منه.

الفنانون العراقيون وكائز الشعور الوطني

كان هؤلاء الفنانون العراقيون بعد الحرب العالمية الثانية، موجهات رمزية اساسية ايضا من اجل عراق الغد. كان نجاحهم الأعظم من دون شك هو الإسهام في تخطي الانقسامات المذهبية والعرقية بين شعوب العراق المعاصر وفي صنع شعور وطني خال من الصراعات الهوياتية و في جمع تلك المكونات في انتماء وطني مجسد في الانتاج الفني الذي يعكس هوية مشتركة. وهكذا مثلا كان النحات محمد غني حكمت المنحدر من عائلة كربلائية، شغوفا بنحت مشاهد آلام المسيح على شكل سلسلة كانت تزين جدران مشغله البغدادي. و لم يتردد رموز الديانة المسيحية في العراق هم أيضا حينما أطلق صدام حسين مشروع بناء كاتدرائية في بغداد في نهاية الحرب العراقية الايرانية الى ان يطلبوا منه ان ينحت صلب المسيح على الصليب الذي كان من المفترض ان يوضع على الكاتدرائية والذي ظل تجسيمه المصغر (الماكيت) قائما في مشغله حتى نيسان ٢٠٠٣، وعلى النحو نفسه و بصورة اكثر رمزية ربما كان العمل الأدبي للشاعر عبد الرزاق عبد الواحد وهو ينتمي الى ديانة الصابئة المندائيين واحد اكثر شخصياتها تأثيرا في العراق، فقد كتب "استشهاد الإمام الحسين"(يقصد الكاتب مسرحية الحر الرياحي-م). وهي مسرحية ذات قوة ادبية متفردة تروي موت أحد أئمة الإسلام الشيعي، وتعد عملا فنيا معترفا به حتى في إيران باعتباره أحدى روائع الشعر ذي الطابع الديني. قد اخرج مؤخرا في بغداد هذا الصرح الادبي وانشده الممثل العراقي الكبير جواد الشكرجي وهو من أصول شيعية وقريب من الشيوعيين.

وفي السنوات السود وهي سنوات الحرب العراقية الإيرانية وفي سنوات الحصار الدولي الذي فرض بعد حرب الخليج كان الفاعلون في الثقافة العراقية يحاولون، وباي ثمن وبرغم العداء، ان يحافظوا على حياة ثقافية لائقة. ولم يسبق منذ الخمسينيات للفنانين العراقيين ان ابدوا إبداعية كهذه و ظمأ كهذا في التعبير عن أنفسهم من خلال الفن. وعلى خلاف الاتحاد السوفييتي و الدول الاشتراكية التي تدور في فلكه، لم يفرض النظام العراقي قط فنا رسميا. كان الفنانون التشكيليون احرارا في إنجاز أعمالهم بدون ضغوط. أما الطلبات الرسمية وخصوصا التماثيل و الجداريات الضخمة المجدة للرئيس فقد كانت تنفذ من قبل فنانين كانوا يرتضون الإسهام في تمجيد القائد مقابل أموال طائلة ومضللة. و تعكس حال الرسام والنحات علاء بشير وهو فضلا عن ذلك جراح تجميل و في الوقت نفسه جراح صدام حسين و فنانه المفضل ، نقول تعكس حالته صورة مهمة لذلك الغموض الذي يكتنف العلاقة بين الفنان والدكتاتورية. فلم تكن حريته الفنية عرضة للتضييق بفعل تلك العلاقة الأصيلة مع الرئيس. وكانت تخطيطاته المعروضة في المركز الوطني للثقافة في العام ٢٠٠٠ تمثل شخصيات معذبة مكممة ومحتبسة، في إشارة واضحة الى ظروف المواطن العراقي ...

في سنوات الثمانينيات تحولت الدولة العراقية الى دولة راعية بالنسبة للفنانين. فقد وضعت مجانا تحت تصرفهم امكنة المعارض ومواردها و مولت الترويج الدولي لاعمالهم ونظمت تظاهرات ثقافية دولية. و لكن نهاية حرب الخليج و نظام العقوبات الدولية وضع اغلب الفنانين في أزمة بل وفي فاقة. وقد أطلق المدير العام لدائرة الفنون الجميلة في وزارة الثقافة العراقية الرسام المشهور اسماعيل الشيخلي الذي كان قد انتخب في العام ١٩٨٦ رئيسا للرابطة الدولية للفنون التشكيلية وهو اعتراف رائع بالفنانين العراقيين، نقول أطلق في العام ١٩٨٧ ملتقى بغداد الدولي للفن، وقد شارك في الملتقيين الأولين مئات الفنانين من مختلف أرجاء العالم و من بين اشهر الفنانين من ضمنهم فرانسه سولاج و سيزار، وقد حظيا بنجاح دولي كبير. وبعد ان اختفى هذا الملتقى مع حرب الخليج الثانية و سنوات الحصار تم إحياؤه في العام ٢٠٠٢ بدفع من بعض الفنانين ومن مخلد المختار مدير المركز الوطني للفنون في بغداد، لكن الظرف الاقتصادي العام وعوز الثقافة الفائق آنذاك قادا هذه التظاهرة الى ان تكون فعالية، لا ينكر أنها تستحق التقدير، ولكنها من دون أي تأثير فني.

كان مجيء وزير للثقافة في ربيع عام ٢٠٠٢، أمي و متخلف وسكرتير سابق لصدام حسين مثل حامد يوسف حمادي قد ولد قلقا كبيرا في الأوساط الفنية، فقد كان حمادي أحد القائمين على الحملة الإيمانية في البلاد ، والتي ظهرت بعد حرب الخليج الثانية وكان النظام يسعى من خلالها الى ممالأة الجماعات الإسلامية الأكثر أصولية. كما كان النظام يسعى في الوقت نفسه من خلالها الى ان يستبق، قدر الإمكان، شبح تزمت المعارضة الدينية التي قد تستمد مشروعيتها من قلة الورع الديني للنظام الحاكم. وقد قرر الوزير منذ الأسابيع الأولى لتسلمه مهامه ان يظهر عداءه للفن التجريدي و ان يحث الفنانين على العودة الى الفن التشخيصي الذي اعتبره و بشكل يدعو الى الغرابة، الأكثر تطابقا مع جذور الفن العراقي.

الثقافة في "العراق الجديد"

لا نستبعد ان يتم حل التعارض بين الفن التجريدي الذي يعد استلهاما غربيا والفن التشخيصي في ظل أوضاع " العراق الجديد " من خلال رفض الابداع الفني رفضا قطعيا. والحق ان الإسلاميين السياسيين يعتبرون الفن التجريدي منتقص القيمة بفعل مؤثراته الغربية، ولكن الفن التشخيصي من جهته يتعارض مع القواعد الأساسية للإسلام لانه يشكل و بحسب عبارة جاك بيرك " منافسة غير شريفة للخلق". وهكذا فان الفن الإسلامي من حيث الجوهر هو فن غير تشخيصي الأمر الذي يقصره في هذه الحال على الزخارف التي تزين الأبنية الدينية. بيد ان تاريخ الإسلام ترصعه الإبداعات الفنية التشخيصية القمينة بالإعجاب، و يكفي ان نتأمل المنمنمات الفارسية و الهندية والعربية. و قد شهد التشدد المذهبي بشأن الفن التشكيلي أقدارا شتى على مر تاريخ العالم الإسلامي، من دون ان يفسح المجال لمعارضة مستديمة وعنيفة حيال الفن التشخيصي. الا أن النزعات الإسلامية الحالية سواء أكانت لدى الوهابيين أم الإسلاميين الشيعة تعلن كما يبدو تشددا متزايداً حيال حرية التعبير الفني. وفي بلد مثل العراق حيث الإنتاج الفني غني على نحو متفرد، قد تتبلور المواجهة بسرعة حالما يتضح المشهد السياسي الجديد. ومنذ عام تتفشى اسلمة سريعة في العراق و في عمق المجتمع، ولا يوليها المراقبون الأجانب إلا اهتماما ضئيلا بصورة تدعو الى الاستغراب، فقد ختمت على أبصارهم غشاوة الصراعات السياسية. وقد تدخل هذه ألاسلمة في صراع مفتوح مع الموروث الثقافي العراقي وتولد حينها صراعا حقيقيا حتى الموت بين رؤيتين للعالم يتعذر التوفيق بينهما.

ويهاجم الاسلاميون ايضا منذ نهاية الحرب الرموز التي تدل على قلة الورع الديني مثل الافلام التي تحتوي على اشارة جنسية و بيع الكحول. و ليس من باب التفكه القول ان الفنانين العراقيين يعدون الكحول مصدرا لإلهامهم، وقد سبق للشاعر الشهير ابو نواس النديم المعروف للخليفة هارون الرشيد ان مجد الخمر في شعره في زمن الخلافة العباسية. وقد اضطر العشرات من الفنانين العراقيين الى الهروب من التهديدات و التضييقات المتعارضة مع حريتهم واختاروا، تساعدهم في ذلك شهرتهم في العالم العربي، سبيل المنفى باتجاه الاردن و سوريا و المغرب او في الامارات الصغيرة في الخليج و التي هي اكثر تقبلا للفن، وبالغرابة، من الاسلاميين السياسيين الشيعة والسنة والساعين الى الاستحواذ على السلطة في بغداد في ظل الاميركان.

اضافة الى ذلك ينبغي التشديد على ان عددا مهما من بين الفنانين، و ربما الاغلبية، كانوا منذ سنوات الخمسينيات اعضاء او متعاطفين مع الحزب الشيوعي العراقي و معنيين بالتقدم الاجتماعي و العلمانية، وهو الامر الذي يوضح على الارجح ان وزارة الثقافة قد انيطت ادارتها بعد دخول القوات الاميركية والبريطانية بممثل عن الحزب الشيوعي العراقي هو مفيد الجزائري وهو كما يبدو الوحيد من بين اعضاء الحكومة الانتقالية الحالية الذي يرغب في ان تعود الى بغداد حياة ثقافية حقيقية متحررة من العوارض السياسية والدينية. بيد ان هذا التطلع قد يجد نفسه منقسما بين الفنانين العراقيين الحداثيين الذين يحترمون الدين في الاعم الاغلب و لكنهم يرفضون ان يدعوه يضيق الخناق على الابداع الفني، وبين الاسلاميين الاكثر تشددا الذين لا ينطوون على اية ثقافة او حساسية فنيتين ومصممين على فرض قراءتهم المنحرفة للقران بالقوة.

في السنوات الاخيرة من حكم نظام صدام حسين ابدى المسؤولون العراقيون عن الثقافة بعض الامتعاض ازاء الفن ما قبل الاسلامي و كانوا يلحون في لقاءاتهم مع نظرائهم الاجانب على اهمية الفن الاسلامي في العراق متمنين ان يقيَم على نحو اكبر عند اقامة المعارض. بيد ان مجموعات الاعمال من هذا الطراز لم تكن تحظى مع ذلك الا باهتمام محدود في الخارج بسبب غنى الاعمال المقدمة في متاحف اخرى عبر العالم، إضافة الى ان الأعمال الفنية الخاصة بالقرون الاولى للحضارة العراقية هي التي كانت تحظى بالاهتمام لفرادتها المنقطعة النظير.

بيد ان ضرورة التشديد على المكون الإسلامي في الهوية العراقية بدت منذ الآن واضحة في خطابات القادة العراقيين وتصرفاتهم وهي نزعة لابد من ان تتأكد بصورة طبيعية اذا كانت الحركات الاسلامية هي التي تمسك بمقاليد السلطة في عراق يعد ديمقراطيا. ان احدى فضائل النموذج الديمقراطي في العراق –والذي يعبر عن نفسه في الحقيقة بالنسبة للتحالف من خلال المبادئ النفعية للعملية ومن خلال تمثيل كمي،حصرا، لمختلف المجموعات الدينية والعرقية المكونة للامة العراقية –سيكون في الحقيقة السماح لحركات مناهضة أساسا للديمقراطية وللنزعة الانسانوية في الوصول شرعيا الى إدارة شؤون الدولة. ولا تحبذ أغلبية القادة العراقيين وجزء كبير من الرأي العام العملية المتفاقمة لتطيف الافكار والتي تزدهر على ارضية جهل بعض الشباب. ويبيح هذا التطيف في الحقيقة لاولئك الذين يحثون على اضفاء الطابع المذهبي و العرقي الى حد التطرف على هذا العراق الجديد، ان يفتتوا الثقافة الوطنية لمصلحة حركات عنيفة و طائفية بصورة تتطابق مع الظاهرة التي عبر عنها فرويد حين وصف النزوع الطبيعي للبشر الى العنف بـ " نرجسية الاختلافات الصغيرة". بالقول : " ان مما لا يستخف به هو ان الافضلية المعطاة لنطاق ثقافة اصغر تجيز الدافع الى ايجاد مخرج في العدائية اتجاه من هم من االخارج ".

ان الانحلال الكامل للمشهد السياسي والديني وغياب سلطة مركزية ذا ت مصداقية وشرعية منذ ٢٠٠٣ اتاحا للحركات الاسلامية تمتين سلطتها بطريقة فاقعة في الاحياء والقرى والمناطق من منظور غزو نهائي للسلطة المركزية. وازاء الانقسام و اللاتسامح الديني فمن الأرجح ان الثقافة هي التي بامكانها في عراق بعد الثلاثين من حزيران ان تكون المبدأ المهيمن بما ان اولئك المواطنين مازالوا، برغم كل الأحداث المأساوية في السنة الجارية والاغتيالات و الصراعات السياسية، يتعرفون على انفسهم في ثقافة وطنية عراقية تقوم على اسبقية حضارة نيرة هي حضارة سكان العراق الاوائل وعلى التراث الدنيوي للتسامح و التعايش المنسجم للشعوب التي تكونه. ومازال الفنانون و المثقفون العراقيون، بعد ان شتتتهم الحروب في جهات الارض الاربع، لافتي الحضور في امسيات يتم فيها استذكار عظمة الثقافة العراقية الماضية، الثقافة التي كانت فيها جداريات جواد سليم ورسومات فائق حسن تهز القلوب وتعزز الإحساس بالانتماء الى موروث ثقافي واحد. ولكن سيكون على المسؤولين العراقيين الجدد في سبيل ترميم هذا البعد الوطني ان يقفوا في وجه الظلامية التي تسعى اليوم الى استغلال الشباب الذين حرمتهم العقوبات الدولية المفروضة على العراق مدة اثنتي عشرة سنة من فرصة التعلم ونيل الثقافة. ان الفنانين الذين يسعون اليوم الى محاربة النسيان والتعتيم من خلال الاستعداد لساعة اعادة افتتاح "متحف الفن العراقي الحديث " وهو متحف متواضع في انقاض بغداد، انما يكافحون من اجل حرية الفكر وحرية الابداع في وسط يتربص فيه المتعصبون الاميون الذين يرتابون من ابتعاث عراق متحرر حقا من اغلاله، يواصل موروثا ثقافيا غزيرا -وفوق هذا وذاك- متسامحا.

❖ ليونيل فيرون هو المستشار السابق للتعاون و العمل الثقافي في شعبة المصالح الفرنسية في بغداد من الأعوام ١٩٩٨-٢٠٠٢ وهو مدرس في المعهد الوطني للغات والحضارات الشرقية و رئيس المعهد الأوربي للثقافة والتنمية. ومقالته هذه نشرت في مجلة مشرق –مغرب الفصلية الفرنسية العدد ١٨٠ صيف ٢٠٠٤ من الصفحات ٥٩- ٧٢، وهي قد كتبت قبل الانتخابات العراقية. وقد قمنا باختصار المقالة نظرا لطولها بما يتناسب مع صفحة في جريدة ولان بعضا مما أهملناه في الترجمة بات معروفا لدى المتابع العراقي من مثل نهب المتحف والأحداث التي تبعت التاسع من نيسان.

تخطيط الجواهري بريشة الفنان جواد سليم